الفصل السادس

الحياة الفكرية في حمص منذ الفتح حتى نهاية عصر بني أميّة

أولاً: العلوم الدينية.

ثانياً: العلوم الطبيعية "علم الكيمياء".

ثالثاً: الحياة الأدبية "الشعر".

١- الشعر السياسي
٢- الهجاء
٣- الرثاء
٤- الفخر
٥- المديح
٦- الغزل

osseikandi.com

مقدمة :

نما تدوين المعارف في عصر بني أمية، سواء فيما يتصل بمعارف ما قبل الإسلام وأخبارها وأنسابها وأشعارها، أو فيما يتصل بالإسلام وما يرتبط به من تشريع وتفسير وحديث نبوي، وخطوب جسام. وقد مضوا يصنفون في المغازي والتاريخ وقصص الأنبياء، وفي المثالب والأمثال والمواعظ، وفي مسائل العقيدة، وفي الأغاني والمغنين وطبقاتهم، وترجموا رسائل في الطب والنجوم والكيمياء، ودونوا كثيراً من الخطب ومن الرسائل السياسية، والوعظية والشخصية، ونهض كتاب الدواوين بالكتابة عن الخلفاء والولاة والقواد نهضة واسعة جعلتهم يستعيرون من الوعاظ أسلوبهم، وما زالوا يرقون بكتاباتهم حتى وضعوا الرسائل الأدبية الخالصة[1]، وقد تنوعت مجالات الحياة الفكرية بحمص على النحو التالي:

أولاً: العلوم الدينية

تعد العلوم الدينية في مقدمة العلوم التي نالت اهتمام العرب المسلمين في حمص بعد الفتح الإسلامي، وذلك بفضل الجهود التي بذلها الصحابة الذين شاركوا في فتح حمص، وكان أساس تلك النهضة الدينية القرآن الكريم، والحديث الشريف، وعلوم الفقه، بالإضافة إلى علوم التفسير التي تهتم بأساليب قراءة القرآن نتيجة لانعدام التشكيل والتنقيط[2].

كما ساعد على الاهتمام بالحركة الفكرية في حمص الازدهار الاقتصادي من زراعة وصناعة وتجارة، فقد أدت الظروف الاقتصادية المناسبة لازدهار الأجواء

---

١ ـ ضيف (شوقي): تاريخ الأدب العربي، العصر الإسلامي، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط٣، ١٩٦٣م، ص٧.

٢ ـ الزرو (خليل): الحياة العلمية في الشام في القرنين الأول والثاني للهجرة، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط١، ١٩٧١م، ص٣١ ـ ١١٧.

الفكرية ونشاط العلم[1].

لقد كان همّ المسلمين وشغلهم الدائم بعد وفاة الرسول محمد ﷺ استكمال نشر الإسلام من خلال الجهاد، ولذلك فقد شارك جُلّ صحابة محمد ﷺ في الفتوحات الإسلامية في بلاد الشام وغيرها من البلدان. وكانت حمص خلال الحقبة الراشدية قاعدة المسلمين في فتوحاتهم الشمالية في بلاد الشام، لذلك فقد استقر عدد كبير من الصحابة في هذا الجند لمتاخمته حدود الرومان، ولكونه يمثل منطقة رباط إسلامية، ولذلك عرفت حمص بالجند المُقَدَّم[2].

وبذلك استقطبت حمص عدداً كبيراً من الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً، وغيرهم من أعيان المسلمين الذين اختاروها لإقامتهم الدائمة والمرابطة في مسالحها وحصونها لأجل حمايتها، ورد غائلة الروم عنها وعما يليها من البلاد إذا فكر هؤلاء بالاعتداء عليها والعودة إليها، إذ أنهم أخرجوا منها وفي أنفسهم غصة من الحسرة والأسى على ما فاتهم في هذه البلاد من رفاه ونعيم وأمجاد.

وقد اختلف المؤرخون وأصحاب السير في عدد الصحابة الذين نزلوا بحمص، فقيل إن عدد الصحابة الذين نزلوا حمص بلغ "٧٠" من أهل بدر[3]، وقال قتادة: " نزلها ٥٠٠ من أصحاب النبي محمد ﷺ، وقيل نزلها من بني سليم ممن صحب النبي ﷺ ٤٠٠ "[4]، وقال عبد الصمد بن سعيد صاحب كتاب تاريخ حمص نزلها ٤٠٠ من الصحابة[5]. وقيل نزلها جماعة من الصحابة، وعدد كبير من التابعين من بعدهم "

---

١ ـ شاكر، موسوعة دول العالم الإسلامي، ج١، ص٨٨.

٢ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٥٠، ص٥٨.

٣ ـ ابن سعد، الطبقات، ج٧، ص٤٤٨. البسوي، المعرفة والتاريخ، مج٢، ص٣٠٣. وكان ذلك العدد في أيام كثير بن مرة الحضرمي الذي أدرك سبعين بدرياً في أيام عبد العزيز بن مروان بن الحكم. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٥٠، ص٥٨.

٤ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٤٦، ص٢٥٥. البكري، المسالك والممالك، ج١، ص٤٩٤. الحميري، الروض المعطار، ص١٩٩.

٥ ـ ابن حجر، الإصابة، ج٤، ص٦٥٩.

ولهم تأريخ"[1]. ويرى الواقدي أن عدد من استشهد من أصحاب رسول الله محمد ﷺ أثناء حصار حمص بلغ "٢٣٥" صحابياً وأن ثلاثين رجلاً فقط من أهل مكة، والباقي من اليمن[2]. وقيل أن الإبدال (الصالحون) بالشام في حمص "٢٥" رجلاً[3]. وقيل أن خالد بن معدان الكلاعي (ت ١٠٣هـ /٧٢١م) عالم الحديث في حمص[4]، وأدرك "٧٠" من أصحاب الرسول محمد ﷺ في حمص[5].

إن الاختلاف في عدد الصحابة والتابعين الذين نزلوا حمص مرده إلى الاختلاف حول مفهوم الصحابة، فهل الصحابة هم من شاهدوا الرسول محمد ﷺ وسمعوا منه؟. أم أنهم من عاصر الرسول محمد ﷺ سواء رآه أم لم يره[6]؟.

---

١ ـ الحازمي، الأمكنة، ج٢، ص٣٨٣.

٢ ـ الواقدي، فتوح الشام، ج١، ص١٣٤.

٣ ـ المالكي (أبو الحسن علي بن محمد)، (ت ٤٤٤هـ/ ١٠٥٢م): فضائل الشام ودمشق، حققه ووضع ملاحقه وفهارسه صلاح الدين المنجد، مطبعة الترقي، ١٩٥٠م، ص٤٦. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١، ص٢٩٩. البصروي (شمس الدين أحمد بن محمد) (ت ١٠١٥هـ/١٦٠٦م): تحفة الأنام في فضائل الشام، تحقيق عبد العزيز فياض حرفوش، دار البشائر للطباعة، دمشق، ط١، ص٦٢.

٤ ـ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج١ + ج٢، ص٧٣.

٥ ـ البخاري، التاريخ الكبير، مج٣، ق١، ص١٧٦. البسوي، المعرفة والتاريخ، مج٢، ص٣٨٥.

٦ ـ الصحابي في عرف المحدثين هو من لقي النبي محمد ﷺ، مؤمناً به، ولو كانت اللقيا ساعة، وقد قصد الشام ممن تنطبق عليهم هذه الصفة مئات، وكان اكبر حشد لهم في اليرموك، وأما سبب اختلاف من دخل حمص من الصحابة فربما أن مؤرخي الشام يرفعون هذه الأعداد تشريفاً لبلدهم، وأن من يدخله الشاميون في الصحابة يجعله الآخرون من التابعين. وجمعت هذه الفئة سمة صحبة الرسول الكريم، وإن تباين أفرادها في درجتها، أي في مدة إلتقائهم به وملازمتهم له، وبعد دخولهم في الإسلام، كان منهم من هو من السابقين الأولين كأبي عبيدة بن الجراح، ومنهم من كان من أقدم الأنصار إسلاماً كعبادة بن الصامت، الذي كان ضمن اثني عشر مدنياً بايعوا الرسول محمد ﷺ، في العقبة الأولى، ويتدرج بعد ذلك آخرون ضمن المراتب المعروفة والمشهورة للصحابة، فمنهم البدريون ومنهم أصحاب بيعة الرضوان ومنهم من أسلم عند الفتح، وأخيراً كان منهم من كان إسلامه في عام الوفود إثر ذلك واقتصرت صحبته بالتالي على أمد قصير ولقاء يسير مع الرسول، إذ عاد إلى قبيلته وموطنه بعد إعلان إسلامه، وضمن إطار هذه السمة المشتركة أيضاً كانوا متمايزين قبلياً وعرقياً متفاوتين في

وقد وردت عبارة "ولهم تأريخ" لدى الحازمي[1]، وهذا يعني أن هؤلاء الصحابة الذين نزلوا حمص كان هناك من ألف بهم الكتب لأهميتهم من جهة، ولعددهم الكبير من جهة أخرى، وقد طالعت عدداً من أسماء هذه الكتب من خلال كتب التراجم والوفيات. **وهذه الكتب هي:**

١- أبو بكر أحمد بن عيسى البغدادي الحمصي، (ت ٢٥٧هـ /٨٧٠م)، كتابه تاريخ الحمصيين.

٢- محمد بن إبراهيم بن سميع الدمشقي الحافظ، المعروف بأبي القاسم أو أبي الحسن، (ت ٢٥٩هـ /٨٧٢م)، كتابه طبقات أهل حمص.

٣- أبو بكر بن صدقة المتوفى في أواخر القرن الثالث الهجري في كتابه تاريخ من نزل حمص من الصحابة.

٤- أبو القاسم عبد الصمد بن سعيد بن عبد الله الحمصي قاضي حمص، (ت٣٢٤هـ/٩٣٥م)، في كتابه تاريخ حمص أو تاريخ من نزلها من الصحابة، وقد عثرت على تراجم لبعض من نزل حمص من الصحابة من هذا الكتاب، نقلها ابن عساكر في كتابه تاريخ دمشق، وابن حجر في كتابه الإصابة، وياقوت الحموي في معجم البلدان، ونفح الطيب للمقري.

٥- عبد الغافر بن سلامة الحمصي، (ت٣٣٠هـ/٩٤١م)، في كتابه تاريخ حمص.

وبذلك فإن الحازمي الذي توفي في سنة (ت ٥٨٤هـ/١١٨٨م)، قد اطلع على تاريخهم، ويبدو أن كتاب عبد الصمد بن سعيد " تاريخ حمص أو تاريخ من نزلها من الصحابة"، كان موجوداً لحقبة ابن حجر الذي توفي في سنة (ت ٨٢٥هـ/ ١٤٢١م)، فقد نقل أخباراً كثيرة عمن نزلوا حمص من الصحابة والتابعين من ذلك الكتاب.

السوية الاجتماعية، فمن الناحية القبلية، كانت نسبة كبيرة منهم تنتمي لقريش أو للأنصار من اوس وخزرج، وتنتسب البقية إلى سائر القبائل العربية الأخرى تقريباً. بدر(أحمد): الدور الإداري والثقافي لطبقة الصحابة النازلة في الشام، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام، "بلاد الشام في صدر الإسلام"، المجلد الثاني، ص٣٧٥.

١ ـ الحازمي، الأمكنة، ج٢، ص٣٨٣.

غير أن هذه الكتب لم يبق منها إلا أسماؤها، فلقد عدت عليها عوادي الزمان، وضاعت في متاهات عصور الضعف، والجهل التي عاشتها بلاد الشام في حقب لاحقة، ولم يعد أحد يعلم مصيرها، ويمكن أن تكون منسية على رفوف مكتبات العالم تغطيها ملاءة من غبار القرون وتعاني مرارة الاغتراب[1].

والملفت للنظر أن هذه الكتب الخمسة تجتمع في الحديث عن مكان واحد "حمص"، وعن موضوع واحد "تاريخ حمص وصحابتها"، وبالوقت نفسه فقدت جميعها، إن هذا الأمر يستدعي القول إن هناك يداً خفية آثرت إخفاء تاريخ حمص وصحابتها تحديداً، وربما أن هذه الكتب كانت مجتمعة لدى شخص واحد وأنه تعرض لحادثة طبيعية كالزلازل أو البراكين أو بشرية كاحتراق منزله ومكتبته، أو أن هناك من تولى بيعها للغرب وأنها تحفظ الآن في مكتباتهم[2].

وعلى أية حال فإن هذه الكتب - بالرغم من فقدانها - تؤكد كثرة عدد الصحابة الذين نزلوا حمص[3].

لقد كان لهؤلاء الصحابة الأثر الكبير في إدخال أعداد كثيرة في الإسلام، من سكان حمص قبيل الفتح الإسلامي، خاصة أن اللغة العربية كانت مشتركة بين الطرفين، كما أن سكان حمص بما رأوا من حُسن أخلاق صحابة رسول الله، وطيب معشرهم ومعاملتهم ما دفع عدداً كبيراً منهم إلى الدخول في الإسلام بعد مقارنتهم لمعاملة المسلمين ومعاملة الرومان لهم. فالمسلمون فتحوا البلدان بالحسام والسنان، وفتحوا القلوب بالهدى والإيمان[4].

---

١ - طحان، كشف النقاب، ص٧.

٢ - بحثت في أرشيف المكتبات العربية في سوريا والقاهرة والأردن وتركيا، ولم أجد شيئاً كما بحثت في عدة مواقع على شبكة الإنترنت فلم أجد لها أثراً. وقد ذكر الدكتور سهيل زكار أنه لم يطلع عليها، وهي من الكتب المفقودة حالياً.

٣ - تأكد وجود ١٣ ضريحاً للصحابة في حمص، و١٠ من ولاة حمص من الصحابة في الحقبة من ١٥ - ٤٦هـ، ومن الصحابة الذين ساهموا في تحرير حمص ١٦، أما من نزل حمص وفقد ضريحه فهم ١٤٦. في حين بلغ عدد من استشهد عند تحرير حمص ٢٣٥. شيخاني، حمص وخالدها، ص٥٩.

٤ - البصروي، تحفة الأنام، ص٦٢.

ولقد اختط أبو عبيدة بن الجراح بعد فتح حمص مسجداً، شكل مركز إشعاع ديني وحضاري، تعلم فيه المسلمون الجدد أمور دينهم بفضل هؤلاء الصحابة.

فعندما شكا يزيد بن أبي سفيان للخلفية عمر بن الخطاب، أن عدد مسلمي الشام قد زاد وأنهم يحتاجون إلى من يعلمهم أمور دينهم، أرسل الخليفة عمر بن الخطاب معاذ بن جبل، وعبادة بن الصامت، وأبا الدرداء وأوصاهم أن يبدأوا بحمص[1].

ويبدو أن عمر بن الخطاب اختار حمص أولاً لسببين: أحدهما أن حمص تمثل الجند الأبعد مسافة، وثانيهما أن حمص يحيط بها أعدد كبيرة من القبائل النصرانية التي لم تسلم بعد، وحتى لا يردوا من أسلم كان يجب تبليغهم رسالة الإسلام، وتقوية إيمانهم، وبث روح الجهاد في سبيل الله في أنفسهم لأنهم الواجهة الحقيقية لأي إغارة رومية تسعى لاستعادة أمجادها، ولذلك قيلت بعض الأحاديث التي تبين فضل حمص وأهميتها، فقيل أن عمر بن الخطاب قال: "سمعت رسول الله ﷺ يقول: ليبعثن الله في مدينة بالشام يقال لها حمص سبعين ألفاً يوم القيامة لا حساب عليهم"[2].

وكان معاذ بن جبل في مسجد حمص وفيه حلقة فيها ثلاثون من أصحاب رسول الله محمد ﷺ يتحدثون "الحديث"[3]، وكان الحمصيون يأخذون الحديث أيضاً من خادم رسول الله ﷺ[4]، وكذلك الحال مع عوف بن مالك الذي كان ينهى

---

١ ـ البخاري، التاريخ الصغير، ج١، ص٦٦. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٢٦، ص١٩٤.

٢ ـ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج١، ص١٩. الهيثمي، مجمع الزوائد، ج١٠، ص٦١. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٥، ص١٨٠.

٣ ـ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج٥، ص٢٣٠. سنن أبي داوود، ج٣، ص٣٠٣. ابن قدامه المقدسي (موفق الدين عبد الله)، الاستبصار في نسب الصحابة من الأنصار، حققه وقدم له علي نويهض، دار الفكر، ١٩٧١م، ص١٤٠. مسند أحمد، ج٥، ص٢٣٩. مجمع الزوائد، ج١٠، ص٢٧٨. الخولاني، تاريخ داريا، ص٦٨

٤ ـ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج٤، ص٣١٨. الهيثمي، مجمع الزوائد، ج١٠، ص١١٦. سنن أبي داوود، ج٤، ص٣١٨. المنذري، الترغيب والترهيب، ج١، ص٢٥٦.

أهل حمص عن قصص كعب الأحبار[1]. كما قيل أن عبد الله بن بسر بن أرطأة كان في ولاية العباس بن الوليد منقطعاً في مسجد حمص[2]. وهذا يؤكد أن مسجد حمص كان يمثل مدرسة للحديث الشريف في الحقبة الراشدية، وأن الصحابة كانوا يعلمون الناس سيرة الرسول محمد ﷺ، وأخباره، وغزواته، وأحاديثه، وأن المسجد لم يقتصر على أداء الصلاة، بل كان له وظائف أمنية واقتصادية وسياسية واجتماعية، واتصالية[3]. ووضع الخطط العسكرية، بل كان يمثل مركزاً دينياً علمياً، خاصة وأن مجتمع حمص لازال آنذاك بحاجة إلى تغيير كثير من المفاهيم وتعلم كثير من المعاملات، وأمور الزواج والطلاق وغيرها من الأمور التي تطلبتها ظروف الفتح، وتبدل المفاهيم والقيم السائدة، وبذلك فقد وقع على كاهل الصحابة مسؤولية دينية كبيرة تمثلت في إحداث نقلة فكرية من المسيحية إلى الإسلام لدى المسلمين الجدد، فورد عن أبي الدرداء أنه قال: "يا أهل حمص مالي أرى علماءكم يذهبون، وأرى جهّالكم لا يتعلمون، وأراكم قد أقبلتم على ما تكفل لكم، وضيّعتم ما وكلتم به، وتعلّموا قبل أن يُرفَعَ العلم، فإن ذهب العلم ذهاب العلماء، لولا ثلاث صلح الناس: شح مطاع، وهوى متّبع، وإعجاب المرء بنفسه، من رُزق قلباً شاكراً، ولساناً ذاكراً، وزوجة مؤمنة فنعم الخير أوتيه، ولن يترك من الخير شيئاً. من يكثر الدعاء عند الرخاء، يُستجاب له عند البلاء، ومن يكثر قرع الباب يُفتح له"[4]. الأمر الذي أدى لكثرة مرتادي المسجد طلباً للعلم، وبالتالي زاد عدد المساجد في حمص.

لقد كان من الطبيعي أن يبادر المسلمون إثر دخولهم فاتحين إلى حمص إلى إعادة تعميرها وبناء المسالح والحصون فيها لحماية أنفسهم والدفاع عن مكتسباتهم العسكرية، وأن يقوموا بإنشاء المسجد لأداء الصلاة، ويبدو أن عمارة

---

١ ـ أحمد بن حنبل، مسند أحمد، ج٦، ص٢٩.

٢ ـ الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٥، ص٢٣٧.

٣ ـ عثمان، المدينة الإسلامية، ص٣٦٠.

٤ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٤٧، ص١٧٢.

هذا المسجد كانت مزيجاً بين العمارة الإسلامية لبناء المساجد وما وجد من أروقة وأبواب وطرز رومانية سابقة، إذ أن المسجد اشتق من إحدى الكنائس الحمصية وفق شروط صلح فتح حمص.

وكان المسجد في حمص يضاء بالوسائل التي كانت شائعة في هذه البلاد، وكانت وسائل الإنارة القديمة مقتصرة على استعمال الشموع أو القناديل بزيت الزيتون.

وقد وجدت عدة مساجد في حمص في حقبة الدراسة منها:

١- مسجد أبو عبيدة حيث صالح أبو عبيدة أهل حمص على أن يكون جزء من كنيستهم مسجداً[١].

٢- المسجد الذي بناه خالد بن يزيد بن معاوية، حيث كان له ٤٠٠ عبد يعملون في بناء المسجد، فلما فرغوا من بنائه أعتقهم في سبيل الله[٢].

٣- أورد ابن عساكر أن عبد الله بن بسر والي حمص كان له مسجد في حمص وبالقرب منه مسجد الكلبيين[٣]، وقد بني هذا المسجد في زمن الوليد بن عبد الملك[٤].

كما أن هذه المساجد تحتاج إلى إمام وغالباً ما كان الوالي يتولى الإمامة في الصلاة، وكان منزله قريباً من المسجد، فقد كان منزل العباس بن الوليد بن عبد الملك عند باب مسجد حمص[٥]. وكذلك وجد المؤذن في مسجد حمص، فقد ذكر أن أبو مهدي سعيد بن سنان كان مؤذن مسجد أهل حمص، وكان ثقة في حقبة الدراسة[٦].

---

١ - ابن قدامه، الخراج، ص٢٩٧. المقدسي، أحسن التقاسيم، ص١٥٩. ابن شداد، الاعلاق، ص٤٨.

٢ - البلاذري، انساب، ق٤،ج١، ص٣٦٤. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٧، ص٢١٣.

٣ - ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٢٧، ص١٤٧.

٤ - أبو زرعة، تاريخ أبو زرعة، ج١، ص٢١٥. وقيل "أن الوليد بن عبد الملك قال للمقدام بن معدي كرب حين فرغ من بنيان مسجد حمص. ما تقول يا أبا كريمة؟ قال المقدام: ما من عبد بنى لله عزوجل مسجداً في الدنيا إلا بنى الله له مسجداً في الجنة". أبو زرعة، تاريخ أبو زرعة، ج١، ص٢٣٧.

٥ - الهيثمي، مجمع الزوائد، ج٥، ص٢٣٧.

٦ - الهيثمي، مجمع الزوائد، ج١، ص٢٠٠.

بالإضافة إلى المسجد وجدت في حمص الكتاتيب فقد قال أدهم بن محرز الباهلي: " إني لأول مولود ولد في حمص، وأول مولود فرض له بها، وكنت أختلف إلى الكتّاب"[1]. وهي إشارة إلى وجود مجموعة من الكتّاب الذين يتولون تعليم العلوم الأخرى التي لا يدرسها الطلاب في المسجد.

وتجب الإشارة إلى أن سكان حمص قبل الإسلام كان لهم قدر من العلم والمعرفة، فيقال إن أهل حمص أول من ابتدع الحساب في سالف الزمن، ويقال إن أبقراط كان مسكنه في حمص[2].

وبذلك يمكن القول إن هناك تبادلاً ثقافياً بين سكان حمص قبل الإسلام وبين المسلمين الفاتحين الجدد، ولابد أن المسلمين قد اعتنوا بما وجدوه من معارف علمية أخرى، وتناقلوا الخبرات فيما بينهم، إذ أن ذلك من الأمور التي حث عليها الإسلام، قال تعالى: " وقل ربي زدني علماً".

وقد عرفت قراءة عبد الله بن مسعود في حمص وكان عبد الله بن مسعود شديداً وحريصاً على ضبط قراءة القرآن في حمص، فروي أنه اقتص من شارب الخمر الذي جادله في قراءة سورة يوسف[3]، كما عرفت في حمص قراءة المقداد بن الأسود الذي شكى للخليفة عثمان اختلاف أهل حمص مع أهل الكوفة حول قراءة المقداد، وكان ذلك من أسباب نسخ عثمان للمصحف، وإتلاف النسخ القديمة، إلى أن نقطها عبد الملك بن مروان. كما أن أم الدرداء زوج أبي الدرداء كانت تعلم نساء حمص القرآن[4].

وبخصوص مصحف عثمان يذكر المكي ثمة قولان حول مصير هذا المصحف: الأول بأنه نقل إلى مسجد خالد بن الوليد عندما بدأ التهديم يصيب قلعة حمص، ثم نقله جمال باشا إلى استانبول. والقول الثاني هو أن هذا المصحف نقل إلى ألمانيا من

---

١ ـ الحميري، الروض المعطار، ص١٩٨. ابن العديم، بغية الطلب، ج٣، ص١٣٣٧.

٢ ـ الحميري، الروض المعطار، ص١٩٩.

٣ ـ أحمد بن حنبل، مسند احمد، ج١، ص٤٢٤.

٤ ـ البخاري، التاريخ الصغير، ج١، ص٢٢٣.

قبل بعض القواد الألمان. واحتفظ به في المتحف الأثري الموجود في مدينة برلين. وقيل إن عبد الغني النابلسي عند زيارته لحمص عام ١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م، قال: "ثم طلبنا زيارة المصحف العثماني فقام رجل من أهل البلد وفتح لنا خزانة في قبلي الجامع المذكور بالقرب من المحراب وأخرج لنا صندوقاً ففتحه وإذا فيه مصحف الإمام عثمان بن عفان(رض) ،وعليه أثر الدم في بعض الآيات، وهو بالخط الكوفي وأوراقه عتيقة مهترئة .... ويمكن أن يكون هو مصحفه الذي كتبه بنفسه وقتل وهو في حجره بدليل أثر الدم الذي فيه، وقد نقل إلى هذه القلعة ووضع فيها، تحصيناً له وعندنا في الشام في الجامع الأموي مصحف يقال له مصحف الإمام عثمان بن عفان .... إلا أن أوراقه وخطه بالنسبة إلى المصحف الذي في قلعة حمص جديد وليس في أوراقه شيء منقطع. ويقال بأن المصحف أحضره الخليفة عمر بن عبد العزيز وهو من جملة المصاحف التي وزعت على الأمصار بعد نسخ عدة نسخ من القرآن الكريم على رق غزال، وهو مكتوب بالخط الكوفي في مجلدين ضخمين. هذا ويستبعد القول، بأن المصحف الذي كان في حمص هو الذي كان في حجر عثمان بن عفان (رض) عندما قتل، إذ تذكر بعض الروايات وجود مصحف به آثار الدم موجود في سمر قند، ومحفوظ في متحف تاريخ شعوب أوزبكستان، لدى أكاديمية العلوم الأوزبكستية، وأن سبب وصوله إلى هناك، هو أن تيمورلنك نقله إلى تركستان، ثم أخذته القوات الروسية عند غزوها لتركستان[1].

ويبدو أن الصحابة كانوا مهتمين بالقرآن الكريم ونشره في حمص، أما الحديث الشريف فقد قيل أنه انتشر في حمص في زمن التابعين[2]، ويبدو أن هذا الأمر يتعلق بمسألة تدوين الحديث إذ انقسم المسلمون في بداية الأمر بين رافض

---

١ ـ مكي (محمد بن السيد): تاريخ حمص، ١١٠٠ ـ ١١٣٥هـ، ١٦٨٨ ـ ١٧٢٢م، تحقيق عمر العمر، رسالة ماجستير، جامعة دمشق، ١٩٧٦م، ص١٠ ـ ١١.

٢ ـ الذهبي (شمس الدين أبي عبيدة محمد بن أحمد بن عثمان)، (٦٧٣ـ٧٤٨هـ): الأمصار ذوات الآثار، أشرف على تحقيقه عبد القادر الأرناؤوط ، حققه وعلق عليه محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق، ط١، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص٣٦.

للتدوين، وبين مؤيد، وربما أن انتشاره بشكل مدون كان زمن التابعين أما زمن الصحابة فقد انتشر شفهياً. فقد كان النعمان بن بشير الأنصاري يخطب على منبر حمص، ويبين لأهلها فضل ليلة القدر[1].

وقد تطلبت ظروف الفتح ونشوء المجتمع الجديد حلاً دينياً لكثير من المسائل الأمر الذي نشط الفقه الإسلامي في حمص، وذلك للإجابة عن الأسئلة والاستفسارات الحياتية اليومية، ولذلك فإن الخلفاء كانوا حريصين على العناية بالفقهاء في حمص وغيرها من مدن الشام بدليل ما كتبه الخليفة عمر بن عبد العزيز إلى والي حمص: "أن انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا"، وأوصاه أن يرزق كل رجل منهم مائة دينار، وكان من فقهاء حمص عمرو بن قيس وأسد بن وداعة[2].

وكان للصحابة في المجال الثقافي دور مماثل لدورهم الحربي والإداري، إذ يسهمون في ميدانه كلهم أيضاً، وإن اختلفت مراتبهم ومقادير إسهامهم، وقد طغى دور المعلمين الثلاثة الكبار الموجهين من المركز، معاذ وعبادة وأبي الدرداء، واستمر المركز في توجيه اهتمامه لهذه الغاية في إرسال النابهين في العلم لديه بعد الفتح، ولو لم يكونوا صحابة. كذلك ندر بين أهل الغزو والإدارة والحكم من الصحابة من لم يشارك في الحياة الفكرية، من خلال أحاديث أو قراءة أو حكم فقهي[3].

ونظراً لوجود عدد كبير من هؤلاء الصحابة في حمص فسأعرض لهم ملحقاً يبين ما تتوفر من مادة علمية لهم، في كتب التراجم والوفيات والأعلام.

إن نظرة إلى جدول تسمية من نزل حمص أو مر بها من الصحابة و .....[4]، لتعطي عدة ملاحظات، لعل أبرزها أن كثيراً من هؤلاء الصحابة كانوا قد تولوا حمص، وقسم منهم قد جمع بين الولاية والقضاء، كما أن الصحبة لا تمنع عنهم

---

١ ـ مسند أحمد، ج٤، ص٢٧٢. سنن النسائي، ج٣، ص٢٠٣.

٢ ـ البسوي، المعرفة والتاريخ، مج٢، ص٣٨٤.

٣ ـ بدر، الدور الإداري والثقافي، ص٣٨٣.

٤ ـ انظر تسمية من نزل حمص من الصحابة و..... في الملحق رقم (١).

صفة قول الشعر فمنهم الشعراء والمحدثون والرواة وأحياناً الكتّاب.

كما أن طبقة الصحابة بالشام كانت على رأس الجيش الفاتح في مناصب القيادة العسكرية والتوجه الديني، وعند نزول الجيش واستقراره بقيت في مواقعها لأن القيادات العسكرية تحولت لأمرة بلدان، كما شغلوا الوظائف العليا التي استدعى إيجادها تطور الوضع. وفي المجال الفكري عملوا بنشاط على تعليم الناس أمور دينهم إضافة إلى القراءة والكتابة، كما ساروا بفكرهم قدماً إلى الأمام عن طريق التكامل فيما بين علومهم بأخذهم بعضاً عن بعض، إضافة لترقيهم فكرياً بفعل ما استثاره تفكيرهم من تساؤلات ممن حولهم، وتطور الأوضاع حولهم، وتحدي بيئة جديدة لهم استدعت منهم تكييف مسلكهم ومسلك الناس كي يبقى منسجماً مع الدين، ومن الطبيعي ألا يستطيعوا الاتفاق على جميع الحلول، كما لم يستطيعوا إيجاد أحكام وحلول لكل شيء، واضطروا للعودة للمدينة طلباً للأمر، أو للفتوى، إلا أنهم أوجدوا في الشام مركزاً فكرياً إسلامياً أنجب كثيراً من التابعين الذين أخذوا علم الصحابة في الشام، ثم تجاوزوه بعد رحلتهم للأمصار الأخرى فأخذوا علمها، مما سمح لمدرسة الشام الفكرية أن تنطلق فيما بعد من قاعدة علمية أوسع وتستند على معرفة للعلم الإسلامي أشمل.

ولم يقتصر الأمر على نزول الصحابة وتابعيهم بحمص بل هناك العديد من الخلفاء ممن نزلوا حمص[1].

وكان من أسباب ازدهار الحركة العلمية والدينية في حمص وغيرها من مدن الشام تشجيع الخلفاء، فقد أرسل معاوية دغفلَ بن حنظلة النسّابة لتعليم ابنه يزيد الذي كان مقيماً عند أخواله في بادية كلب، وأوصاه قائلاً: "علمه الغريب والأنساب، والنجوم"[2]. فمعاوية يحث المؤدبين على تعليم الكتب المترجمة، والأنساب لمعرفة القبائل، والنجوم لارتباطها بالفلك وأثرها على الاقتصاد والشهور القمرية، وخاصة الحج، ولأثرها في تحديد الفصول.

---

١ ـ انظر تسمية من نزل حمص من الخلفاء في الملحق رقم (٦).

٢ ـ الزمخشري، ربيع الأبرار، ج١، ص٥٦.

وكذلك الحال مع عتبة بن أبي سفيان الذي أوصى مؤدب أولاده بوصايا غاية في الأهمية قائلاً: " ليكن أول إصلاحك بَنيّ إصلاحك لنفسك، فإن عيوبَهم معقودة بعيبك، فالحُسن عندهم ما فعلت، والقبيح ما تركت، وعلّمهم كتاب الله ولا تُملّهم فيتركوا، ولا تدعهم منه فيهجروا، وروِّهم من الحديث أشرفه، ومن الشعر أعفه؛ ولا تخرجهم من علم إلى علم حتى يحكموه، فإن ازدحام الكلام في السمع مَضلّةٌ للفهم، وهددهم بي وأدبهم دوني، وكن بهم كالطبيب الرفيق الذي لا يعجل بالدواء حتى يعرف الداء، وامنعهم من محادثة النساء، واشغلهم بسير الحكماء، واستزدني بآدابهم أزدك، ولا تتكلن على عذر مني فقد اتكلت على كفاية منك"[1].

وكذلك الحال فعل عبد الملك بن مروان، إذ إنه أوصى الشعبي حين عينه لتعليم أبنائه قائلاً: "علمهم الصدق كما تعلمهم القرآن، وجنبهم السفلة، فإنهم أسوأ الناس دَعَة، وأقلهم أدباً، وجنبهم الحشم فإنهم لهم مفسدة، وأحف شعورهم تغلظ رقابهم، وأطعمهم اللحم تصح عقولهم، وتشتد قلوبهم، وصقّل رؤوسهم، وعلمهم الشعر، ومرهم أن يستاكوا عرضاً، ويمصوا الماء مصاً ولا يعبوا عباً. فإذا احتجت أن تتناولهم بأدب فليكن ذلك في ستر لا يعلم به أحد من الغاشية فيهونوا عليهم[2].

كما أن عبد الملك بن مروان كان مشغوفاً بتعلم الحديث الشريف[3]، حتى أنه أوصى بثلث ماله لأهل الأدب[4]، وكان سليمان بن عبد الملك قد طلب من الكلبي أن يعلم ابنه القرآن والشعر، لأن الشعر ديوان العرب، والفرائض والسنن، والأدب[5]. ويقال إن مسلمة بن عبد الملك أيضاً أوصى بثلث ماله لأهل الأدب[6]، كما أن الخليفة عمر بن عبد العزيز كان يهتم بالحديث والقراءات حتى أنه كان

---

١ ـ ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة، ج١، ص١٦٢.

٢ ـ الزمخشري، ربيع الأبرار، ج١، ص٣٠٠.

٣ ـ الزمخشري، ربيع الأبرار، ج٢، ص٣٢١. الأبشيهي، المستطرف، ج١، ص٣٨٢.

٤ ـ الزمخشري، ربيع الأبرار، ج٣، ص٢٤٩.

٥ ـ الدينوري، الأخبار الطوال، ص٣٠١.

٦ ـ التوحيدي، البصائر، ج٢، ص١٢٢.

يجالس قراء أهل الشام[1]، وكان الناس في عهده يتساءلون: كم تحفظ من القرآن؟. وكم وردك كل ليلة؟. وكم يحفظ فلان؟. وكم يختم؟[2]. وكتب عمر بن عبد العزيز إلى والي حمص: "انظر إلى القوم الذين نصبوا أنفسهم للفقه، وحبسوها في المسجد عن طلب الدنيا، فأعط كل رجل منهم مائة دينار يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين حين يأتيك كتابي هذا"[3].

وإذا كان هذا المنظور الأدبي والعلمي كان يوصف به الخلفاء فلابد أن الولاة كانوا على درجة من هذا القبيل، فكان لهم أبناء ولهم مؤدبون، وكذلك كان من واجباتهم الاهتمام بنشر التعليم من قرآن وحديث وتفسير وغيرها مما يتوفر من معارف.

ثانياً: العلوم الطبيعية "علم الكيمياء"

عندما يئس خالد بن يزيد من الوصول إلى الخلافة، اتجه إلى طلب العلم فنبغ في هذا المجال، ويبدو أن اهتمام خالد بالعلوم كان على أثر ما وصله من الكتاب الذي أهداه ملك الصين لجده معاوية بن أبي سفيان، وكان كتاباً من سرائر علومهم، وقد اهتم في بادئ الأمر بعلم الصنعة (علم الكيمياء)[4]، فجلب العلماء من مصر ليترجموا العلوم الكيميائية والطبية من اليونانية والقبطية إلى اللغة العربية، وقد كان يعيش في الإسكندرية راهب يدعى (ماريانوس) وكان يشتغل في الكيمياء، وقد سمع به خالد بن يزيد واستدعاه ليتعلم منه الصنعة[5].

---

١ ـ الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٦، ص٤٢٠.

٢ ـ الأبشيهي، المستظرف، ج١، ص٣٣١. ابن الطقطقي، الفخري، ص١٢٧.

٣ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٤٦، ص٣٢٠.

٤ ـ ابن الطقطقي، الفخري، ص١٢١.

٥ ـ المقريزي، المقفى الكبير، ج٣، ص٧٧٦ ـ ٧٨٢. الدفاع (علي عبد الله): إسهام علماء العرب والمسلمين في الكيمياء، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م، ص٩٠. حميدان (زهير):

حيث أرسل خالد بن يزيد مولاه وكاتبه غالب إلى مريانوس وطلبه وكان كبيراً في السن فأتاه وأكرمه، وجرت بينهم أسئلة وأجوبة كثيرة استفاد من خلالها خالد بن يزيد ودونها له كاتبه غالب، وكان خالد قد طلب من مريانوس أن يقيم معه حتى يجرب ما تعلمه منه، ولا يقتصر الأمر على الأمور النظرية فقط، وقد تحقق لخالد ذلك، وإن المتتبع لما جرى من أسئلة بين خالد ومريانوس يلحظ اهتمام خالد بعلم الصنعة، ودهشته من رأي الحكماء السابقين، فكثيراً ما كان مريانوس يستشهد برأي الحكماء وأصحاب الصنعة السابقين له، فقد قال خالد لمريانوس: " إني أسمع منك عجائب، وقولاً ما خطر ببالي قط". ومما يؤكد اشتغال خالد بهذه المعارف والعلوم بحمص أن خالداً بنى قصراً خارج حمص " هو معروف لهذه الغاية"، وهو قصر خالد. وأفنى عمره متفرداً ولحق بمن مضى من الأجيال[1].

ويؤكد ذلك ما ذكره صاحب الفهرست، قال محمد بن اسحق: " الذي عني بإخراج كتب القدماء في الصنعة خالد بن يزيد بن معاوية، وكان خطيباً شاعراً فصيحاً حازماً ذا رأي. وهو أول من ترجم له كتب الطب، والنجوم، وكتب الكيمياء، وكان جواداً. يقال إنه قيل له: لقد جعلت أكثر شغلك في طلب الصنعة، فقال خالد: ما أطلب بذلك إلا أن أغني أصحابي وإخواني، أني طمعت في الخلافة فاختزلت دوني، فلم أجد منها عوضاً إلا أن أبلغ آخر هذه الصنعة، فلا أحوج أحداً، عرفني يوماً أو عرفته، إلى أن يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة، ويقال: والله أعلم إنه صح له عمل الصنعة، وله في ذلك كتب ورسائل، وله شعر كثير في هذا المعنى. رأيت منه نحو خمسمائة ورقة ورأيت من كتبه، كتاب الحرارات، وكتاب الصحيفة الكبير، وكتاب الصحيفة الصغير، وكتاب وصيته إلى ابنه في

أعلام الحضارة العربية الإسلامية في العلوم الأساسية والتطبيقية، منشورات وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٩٥م، مج١، ص٢٦ ـ ٣٢.

١ ـ ديوان خالد بن يزيد وما جرى له مع مريانوس، صورة المخطوط المحفوظ بخزانة الكتب الظاهرية بدمشق، ص١٩٢ ـ ٢١٤. نقلاً عن قاري (لطف الله): نشأة العلوم الطبيعية عند المسلمين في العصر الأموي، تنفيذ دار الرفاعي للنشر والطباعة، الرياض، ط١، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.

الصنعة"[1].

وتدل هذه الرواية على أن خالداً كان من الشخصيات التي اهتمت بالعلوم والمعارف وليزداد ثقافة وسعة اطلاع بدأ بترجمة الكتب التي مكنته من إتقان العلوم وكشف أسرارها.

وتكشف هذه الرواية أن خالداً كان يطمع في الخلافة، غير أن بني مروان حجبوها عنه، فعندها توجه إلى طلب العلم، لكي يجمع من ورائه المال الذي يغنيه عن الاستعانة بأموال بني مروان، كما تشير إلى استمرارية تطلعه للخلافة وذلك من خلال قوله: "إلى أن يقف بباب سلطان رغبة أو رهبة". ومما يؤكد أن انشغال خالد بطلب العلم كان نتيجة لإقصائه عن الخلافة ما رواه المدائني: "قدم محمد بن عمرو ابن سعيد بن العاص الشام غازياً فدخل على عمته آمنة امرأة خالد فقال خالد: "ما يقدم أحد من الحجاز إلا اختار المقام عندنا على المدينة، فقال محمد: وما يمنعهم وقد قدموا من المدينة على النواضح فنكحوا أمك وسلبوك ملكك، وفرغوك لطلب الحديث، وقراءة الكتب، وطلب ما لا يقدر عليه، يعني الكيمياء"[2].

ووصف المصعب الزبيري خالداً بقوله: "كان يوصف بالعلم ويقول الشعر، زعموا أنه هو الذي وضع ذكر السفياني وكثره، وأرد أن يكون للناس فيه طمع، حين غلبه مروان بن الحكم على الملك، وتزوج أمه أم هاشم"[3].

---

١ ـ النديم، الفهرست، ص٥٤٤ـ ٥٤٥. وممن ذكر أنه كان مهتماً بالعلم. انظر: ابن قتيبة، المعارف، ص١٩٨. الطبري، تاريخ، ج٥، ص٥٠٠. المقريزي، المقفى الكبير، ج٣، ص٧٧٦. الجاحظ، البيان والتبيين، ج١، ص١٩٥. ابن العديم، بغية الطلب، ج٧، ص٣١٨٧. الذهبي، سير أعلام، ج٤، ص٣٨٢ـ ٣٨٣. الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٦، ص٥٦. وانظر: إبراهيم (فاضل خليل): الجوانب الدينية والأدبية في اهتمامات العالم العربي (خالد بن يزيد)، المؤرخ العربي، بغداد، العدد ٣٥، السنة الرابعة عشرة، ١٩٨٨م، ص٢٠٠ـ٢١٢.

٢ ـ البلاذري، أنساب، ق٤، ج١، ص٣٦٦. ابن عبد ربه، العقد الفريد، ج٤، ص٩٤. الأصفهاني، الأغاني، مج١٧، ص٢٥٨. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٦، ص٢٧٣.

٣ ـ المصعب الزبيري، نسب قريش، ص١٢٩. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٦، ص٣٠٣. إبراهيم،

ويبدو أن خالداً بعدما أخفق في استرداد الخلافة لزم بيته، فقيل له كيف تركت مجالسة الناس وقد عرفت فضلها ولزمت بيتك؟ فقال: "وهل بقي إلا حاسد على نعمة أو شامت بنكبة"[1]. وكان خالد بن يزيد يسمى حكيم آل مروان[2]، وذلك لنبوغه بالعلم والمعرفة.

ويبدو أن عبد الملك كان قد استفاد من خبرة خالد بن يزيد بن معاوية، في مسالة سك الدنانير، والنقود، ففي الوقت الذي أنكر فيه ملك الروم ما أصلحه عبد الملك من بعض التغيرات على النقود، أشار خالد بن يزيد على عبد الملك "حرم دنانيرهم، واضرب للناس سككاً فيها ذكر الله ورسوله، ولا تعفهم مما يكرهون في الطوامير" ففعل ذلك[3]، وكان عبد الملك يصف خالد بالدهاء[4].

ولكن ما سبب اهتمام خالد بهذه العلوم المختلفة؟. يبدو أن اهتمامه بعلم الطب لحاجة الناس للأدوية، ولوقايتهم من الأمراض في ظل انتشار الطاعون وغيره من الأمراض. وأما علم الكيمياء فهو العلم الذي كان يظنه الناس أن بإمكانه تحويل المعادن الرخيصة إلى ذهب وفضة، وبذلك تزيد الثروة المادية، وكذلك يمكن صنع الأدوية باستعمال النظريات الكيميائية، أما اهتمامه بعلم الفلك فذلك لخدمة

الجوانب الدينية والأدبية في اهتمامات العالم العربي (خالد بن يزيد)، ص٢٠٥-٢٠٨. إبراهيم (فاضل خليل): الجوانب الدينية والأدبية في اهتمامات العالم العربي (خالد بن يزيد)، المؤرخ العربي، بغداد، العدد ٣٥، السنة الرابعة عشرة، ١٩٨٨م، ص٢٠٥-٢٠٨.

١ - ابن العديم، بغية الطلب، ج٧، ص٣١٩٣.

٢ - المقريزي، المقفى الكبير، ج٣، ص٧٧٦.

٣ - ابن قتيبة، عيون الأخبار، ج١، ص٢٩٦-٢٩٧. ابن العديم، بغية الطلب، ج٧، ص٣١٩٤. السيوطي، المهذب من تاريخ الخلفاء، ص١٦٠. ابن الأثير، الكامل، مج٤، ص٤١٧، وأورد ابن عساكر إشارة إلى أن داوود بن يزيد بن معاوية هو الذي أشار على عبد الملك سك النقود وليس خالد، تاريخ دمشق، ج١٧، ص١٩٥. وانظر: أحمد (علي): مظاهر التعريب في العصر الأموي، كلية الآداب، جامعة دمشق، ص١-١٠.

http:// acarap Htmlplanet. Com/ arabizaion – j / accessories/jour-٢. htm. P٢ .

٤ - ابن قتيبة، عيون المعارف، ج١، ص٢٩٦.

التجارة وما يحتاجه المسلمون من الإلمام بحركة النجوم[1].

وكان من الأطباء الذين أقاموا بحمص ابن أثال النصراني وهو طبيب من أخصاء الخليفة الأموي معاوية، من نصارى الشام، خبير بالأدوية المفردة والسموم[2]. كما يقال أن أهل حمص هم أول من ابتدع الحساب في سالف الأزمان، لأنهم كانوا تجاراً يحتاجون إلى الحساب في أرباحهم[3].

وكان أبقراط يقيم في حمص خلال الحكم الفارسي للشام، واشتهر بالطب والمعرفة[4]، وكان يقيم فيها من تلاميذه ماغنش الحمصي[5].

كما أن وجود عدد من المدارس في حقبة ما قبل الإسلام كمدرسة الإسكندرية، وجند نيسابور وحران ونصيبين والرها وأنطاكية، كانت من الأمور التي أثرت في الحياة العلمية في حمص خاصة وأن خالد بن يزيد استقدم مريانوس من مدرسة الإسكندرية والذي كان مطلعاً على علوم ومعارف المدارس الأخرى[6].

كما لم يهمل خالد بن يزيد الجانب الأدبي والإسلامي، وتعزى فصاحته إلى حفظه القرآن الكريم، وقد كان من الذين يقضون معظم وقتهم في الإرشاد والتذكير بسيرة الرسول محمدﷺ[7]. فقد قيل لخالد ما أقرب شيء قال الأجل قيل

---

١ ـ الدفاع، المرجع السابق، ص٩٢. الزور، الحياة العلمية، ص١٧٧ـ ١٨٣.

٢ ـ حميدان، أعلام الحضارة، ج١، ص١٩.

٣ ـ البكري، المسالك، ج١، ص٤٦١.

٤ ـ ابن جلجل (أبو داوود سليمان بن حسان الأندلسي): طبقات الأطباء والحكماء، ألفه سنة ٣٧٧هـ، ويليه تاريخ الأطباء والفلاسفة، تأليف إسحاق بن حنين (ت ٢٩٨هـ)، تحقيق فؤاد السيد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م، ص١٦.

٥ ـ ابن جلجل، طبقات الأطباء، ص٣٥.

٦ ـ سعيدان (أحمد سليم): مطالعات في تاريخ العلوم في العصر الأموي، مجلة دراسات تاريخية، السنة الأولى، العدد ٣، ١٩٨٠م، ص١١٩.

٧ ـ شربل (موريس): موسوعة علماء الكيمياء، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١١هـ، ١٩٩١م، ص١٤٦ـ١٤٨. وكان خالد حريصاً على نقل علومه لأبنائه، فقد وصف حرب بن خالد ابن يزيد بن معاوية أنه عالم عاقل فاضل. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٢، ص٣١٢.

قيل فما أرجى شيء، قال العمل، قيل فما أوحش شيء، قال: الميت، قيل فما آنس شيء، قال: الصاحب المواتي، وقيل له ما الدنيا، قال ميراث. قيل فالأيام قال دول، قيل فالدهر، قال أطباق والموت يكمل سبيله فليحذر العزيز الذل، والغني الفقر[1].

وقد كان خالد والياً على حمص، وبنى مسجداً وكان له دار بها، كما كانت فيها قرية تدعى بقرية خالد بن يزيد، الأمر الذي يمكن من خلاله ترجيح نشر خالد هذه المعارف بحمص أو أن انقطاعه للعلم كان في حمص.

ومما يثبت ممارسة خالد بن يزيد لعلم الكيمياء ما قيل من شعر على لسانه:

خذ الطلق مع الأشق ... وما يوجد في الطرق

وشيئاً يشبه البرقا ... فدبره بلا حرق

فإن أحببت مولاكا ... فقد سوّدت في الخلق[2]

وتؤكد هذه الأبيات اهتمام خالد بعلم الكيمياء، وشرحه طريقة صنع الأسلحة، كما أنها تؤكد عدم رضاه عن فقدان حقه في الخلافة في البيت الأخير.

كما أن خالد بن يزيد كان لديه فكر في طرق تحلية مياه البحار وتنقيتها من الأملاح والشوائب، وتذاكروا الماء بحضرة عبد الملك بن مروان فقال خالد: منه ما يكون من السماء ومنه ما يستقيه الغيم من البحر، فيعذبه البرق والرعد، فأما ما يكون من البحر فلا يكون له نبات، وأما النبات فإنما يكون من ماء السماء، ثم قال: "إن شئتم أحليت لكم ماء البحر، فأتى بقليل من ماء ثم وصف كيف يصنع به حتى يعذب"[3].

وفي هذا دليل واضح على معرفة خالد بالدورة المائية، كما أنه علل أن الماء المتبخر من مياه البحار يكون غير نقي، وذلك لزيادة نسبة الملوحة فيه، كما أنه

---

١ ـ ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، هذبه ورتبه عبد القادر بدران، (ت ١٣٤٦هـ)، دار المسيرة، بيروت، ط٢، ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م، ج٥، ص١٢٢.

٢ ـ قاري، نشأة العلوم، ص١٠٣.

٣ ـ ابن عساكر، تهذيب تاريخ دمشق، ج٥، ص١٢٢ ـ ١٢٣.

يقدم طريقة علمية لتنقية مياه البحار.

وقد مثلت المعارف والعلوم السابقة نواة المدارس الحمصية في حقب لاحقة والتي أسهمت في نهضة حمص الفكرية، فغدت مركز إشعاع فكري وحضاري، غير أن ما عانته في العصر العباسي الأول قد جمد من نهضتها إلى حد ما.

ثالثاً: الحياة الأدبية "الشعر"

الشعر في حمص:

لقد ازدهر الشعر في بلاد الشام في العصر الأموي بتشجيع الخلفاء وعنايتهم، فقيل إن معاوية قال: " اجعلوا الشعر أكبر همكم، وأكثر آدابكم، فإنَّ فيه مآثر أسلافكم ومواضع إرشادكم"[1]. كما كان عبد الملك بن مروان يحب الشعر والفخر والهجاء والمدح، وكثر الشعراء في أيامه، وامتدحت الشعراء الأمراء والأشراف، وطلبت الثواب[2]، ومن أبرز الأغراض الشعرية التي قيلت بألسنة الحمصيين:

١- الشعر السياسي

اكتسب الشعر في العصر الأموي قوة كبيرة وأصبح يمثل أحد وسائل الإعلام السياسية.

وعندما أراد معاوية بن أبي سفيان إرضاء مالك بن هبيرة والي حمص بقتل حجر قيل من الشعر:

تداركتُم أمرَ الهبيريّ بعدَما ... سما للّتياً والتي كُنْتَ تحذَرُ

فأَضحى الهُمامُ عاقداً ثمّ رايةً ... بحِمْصَ تُناجيهِ السَّكونُ وحميرُ

---

١ ـ ابن حمدون، التذكرة، مج٢، ص٦٧.

٢ ـ اليعقوبي، مشاكلة الناس، ص٢٨ . البغدادي، خزانة الأدب، ج١، ص١٨٢.

يُدارسُهُم آيَ الكتابِ وقَلْبَهُ شجٍ بمُصاب أهلِ عذراءَ مُشعَرُ[1]

وكذلك قال:

أرى زمناً ثعالبُه قيام على الأشراف يَخطرُ كالأسود

وكان الثعلب الصبّاحُ يرضى بما يرَثُ الكلاب من الصيود

وقال أيضاً:

سرحت سفاهتي وأرحتُ حلمي وفيّ على تَحَمُّلي اعتراضُ

على أني أصيب إذا دعتني إلى حاجاتها الحَدَقُ المراض[2]

ففي الوقت الذي أراد معاوية أن يبايع لابنه يزيد بولاية العهد، استغل الموقف أحد رجالات حمص من ذي الكلاع وتمثل قائلاً:

معاوية الخليفةُ لا تُمارى فإن تهلك فسائسنا يزيد

فمن غلب الشقاء عليه جهلاً تحكم في مفارقه الحديد[3]

كما أن خالد بن يزيد بن معاوية كان شاعراً، وكان يعبر عن استيائه من ظلم المروانين له باغتصاب الخلافة، وتوليته حمص، فقد كان يندد بمروان قائلاً:

وما الناس بالناس الذين عهدتهم وما الدار بالدار التي كنت تعرف[4]

كما أن خالد بن يزيد كان متعجباً ومستاءً من ملاسنة عبد الملك معه متمثلاً:

ويجر اللسان من أسلات الحرب ما لا يجر منها البيان[5]

---

١ ـ ابن الكلبي، نسب معد، ج١، ص١٣٨. البلاذري، أنساب، ق٤، ج١، ص٢٦٢.

٢ ـ البلاذري، أنساب، ق٤،ج١، ص٣٦٣-٣٦٤.

٣ ـ القالي، الامالي، ج١، ص١٦١. هدارة (محمد مصطفى): الشعر في صدر الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٥م، ص١٨١.

٤ ـ البلاذري، أنساب، ج٥، ص١٥٨. الطبري، تاريخ، ج٥، ص٦١١. ابن عبد البر، الاستيعاب، ق٣، ص١٣٨٩. الفاسي، العقد الثمين، ج٧، ص١٦٨.

٥ ـ ابن العديم، بغية الطلب، ج٧، ص٣١٩١. ولما بايع والي حمص الحصين بن نمير مروان بن الحكم، واستقر الملك لمروان بن الحكم، اشترط الحصين على مروان أن ينزل البلقاء من كان

ومدح أحد الشعراء خالد بن يزيد قائلاً:

سألت النَّدْى والجود: حُرَّان أنتما؟ فقالا جميعاً: إننا لعَبيد

فقلت: فمن مولاكما؟ فتطاوَلا عليَّ وقالا: خالد بن يزيد[1]

وكان والي حمص العباس بن الوليد بن عبد الملك أكبر ولده وبه يكنى، وهو الذي يقول لأصحابه حين همّوا بخلع الوليد بن يزيد:

يا قومنا لا تملّوا نعمة لكم إن الإله لكم فيما مضى صنعُ

فأنتم اليوم أهل الملك مذ حقب وأهل دنيا ودين ما به طمع

فانفوا عدوكم عن نحت أثلتكم واستجمعوا إن أمر الدين مجتمع

إن الكبير عليكم في ولايتكم أن تصبحوا وعمود الدين منصدع

لا تلمحن ذئاب الناس أنفسكم إن الذئاب إذا ما ألمحت رتع

بالشام من كندة، وأن يجعلها لهم مأكلة، فأعطاه ذلك، وإن بني الحكم لما استوثق الأمر لمروان، وقد كانوا اشترطوا لخالد بن يزيد بن معاوية شروطاً؛ قال مروان ذات يوم وهو جالس في مجلسه ومالك بن هبيرة جالس عنده: إن قوماً يدعون شروطاً منهم عطّارة ومكحلة، - يعني مالك بن هبيرة وكان رجلاً يتطيب ويكتحل - فقال مالك بن هبيرة: هذا ولما تردى تهامة، ولما يبلغ الحزام الطبيين؛ فقال مروان: مهلاً يا أبا سليمان، إنما داعبناك. فقال مالك: هو ذاك. وقال عويج الطائي يمتدح كلباً وحميد بن بحدل:

لقد علم الأقوام وقع ابن بحدل وأخرى عليهم إن بقي سيعيدها

يقودون أولاد الوجيه ولاحق من الريف شهراً ما ينّى من يقودها

فهذا لهذا ثم إني لنافض على الناس أقواماً كثيراً حدودها

فلولا أمير المؤمنين لأصبحت قضاعة أرباباً وقيس عبيدها

البلاذري، أنساب، ق٤، ج١، ص١٥٠. الطبري، تاريخ، ج٥، ص٥٤٤.

١ - الذهبي، تاريخ الإسلام، ج٦، ص٥٧.

لا تبقـــرن بأيـــديكم بطونكـــــم ثمـــة لا حـــسرةٌ تغـــني ولا جـــزع

لا يلقـــين علـــيكم مـــن جنايتكـــم مـــع الـــشقاء يديـــه الأرقـــم الخـــدع

إنـــي اعيـــذكم بـــالله مـــن فتـــن مثـــل الجبـــال تـــسامى ثـــم تندفـــع

لـــستم كمـــن كـــان قبـــل اليـــوم يـــسعرها بالمـــشرقية بيـــضاً حـــين تنتـــزع

والـــسمهرية مطـــرور أسنتـــها وحومـــة المـــوت تغلـــي وردهـــا شـــرع

إن البريـــة قـــد ملـــت ولايتكـــم فاستمسكوا بحبـال العهـد واتدعـوا[1]

كما أن أبا محمد السفياني كان قد حمل وصية الحكم وعثمان ابني الوليد عندما كان معهما في سجن إبراهيم بن الوليد، والمتمثلة ببيعة مروان بن محمد قائلاً على لسان الحكم:

فـــإن أُقتـــل أنـــا ووليـــي عهـــدي فمـــروان أمـــير المؤمنينـــا[2]

٢- الهجاء:

تغيرت مع قدوم الإسلام كل القيم التي سادت في حقبة ما قبل الإسلام بين العرب، وانهارت لتحل محلها القيم الإسلامية التي نشرها الرسول محمد ﷺ وعززها الخلفاء الراشدون بعده، أما في العصر الأموي فقد اتضحت ملامح الأحزاب السياسية، فكان لكل حزب سياسته الخاصة، فانبرى الشعراء يدافعون عنه ويهجون أعداءه، فكان الشاعر ينظم قصيدة هجائية، فيلجأ الآخر للرد عليها ملتزماً البحر نفسه، والقافية والموضوع، وكل شاعر يلصق بالآخر وبقبيلته معاني الضعف والهوان، كل ذلك في سبيل الكسب المادي[3].

وكان الأخطل قد هجا الأنصار قائلاً:

---

١ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٢٦، ص٤٣٩.

٢ ـ القضاعي، تاريخ القضاعي، ص٢٤٧.

٣ ـ محمد، موسوعة المبدعون، مج٢، ص٢٧.

ذهبت قريش بالمكارم كُلّها واللُّؤمُ تحت عَمائِم الأنصار

وكان مع معاوية النعمان بن بشير الأنصاري فلما بلغه الشعر أقبل حتى دخل على معاوية ثم حسر عمامته عن رأسه وقال: يا معاوية: هل ترى لؤماً؟ قال ما أرى فيه. قال: والله لا رضيت إلا بقطع لسانه ثم قال:

فمالي ثأرٌ دون قطع لسَانه فدونك من ترضيه عنك الدراهم

قال معاوية: وهبتك لسانه، وبلغ الأخطل فلجأ إلى يزيد بن معاوية، فركب يزيد إلى النعمان، فاستوهبه إياه فوهبه له[1]. ومما تجدر الإشارة إليه أن أهل معرة النعمان يوصفون بإكرامهم للشعراء[2].

وكانت هند بنت النعمان بن بشير والي حمص تقول شعراً، وكانت زوج روح بن زنباع فهجته بأبيات منها:

وما هند إلاّ مهرة عربية سليلة أفراسٍ تحللها بغل

فإن ولدت مهراً كريماً فبالحرى وإن يك إقرافٌ فما أنجب الفحل[3]

وكان إبراهيم بن النعمان شاعراً[4]. ومما يدل على أن معظم أفراد أسرة النعمان كانوا من الشعراء، إذ كان هو من المعروفين في الشعر سلفاً وخلفاً، فجده شاعر، وأبوه وعمه، وأولاده وأولاد أولاده[5]. فقد كانت عمرة بنت النعمان

---

١ ـ ابن الكلبي، نسب معد، ج٢، ص٥٩. أبي تمام، النقائض، ص١٥٨. الأصفهاني، الأغاني، مج١٦، ص٢٩٣.

٢ ـ الصولي (أبو بكر محمد بن يحيى) (ت ٣٣٥هـ / م) أخبار البحتري و بآخرها ذيل الأخبار من رواية الصولي، حققها وعلق عليها صالح الأشتر، دار الفكر، دمشق، ط٢، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م، ص٥٦. بابتي (عزيزة فوال): معجم الشعراء المخضرمين والأمويين، دار صادر، بيروت، لبنان،ط١، ١٩٩٨م، ص١١.

٣ ـ المقدسي، الاستبصار، ص١٢٣.

٤ ـ الروضان، موسوعة شعراء، ص٦.

٥ ـ الأصفهاني، الأغاني، مج١٦، ص٢٩٧.

وأختها حميدة من الشعراء[1].

وبعث ابن مفرّغ رجلاً من بني الحارث بن كعب فقام على سور حمص فنادى بأعلى صوته الحصين بن نمير. وكان والي حمص. بهذه الأبيات وكان عظيم الجبهة:

أبلغ لديك بني قحطان قاطبة ... عضت بأير أبيها سادة اليمن

أمسى دعي زياد فقع قرقرة ... يا للعجائب يلهو بابن ذي يزن

والحميري طريح وسط مزبلة ... هذا لعمركم غبن من الغبن

والأحبة ابن نمير فوق مفرشه ... يرنو إلى أحور العينين ذي غنن

قوموا فقولوا: أمير المؤمنين لنا ... حق عليك ومنّ ليس كالمنن

فاكفف دعي زياد عن أكارمنا ... ماذا يريد على الأحقاد والإحن

فاجتمعت اليمانية إلى حصين وعيروه بما قاله ابن مفرّغ، فقال الحصين: ليس لي رأي دون يزيد بن أسيد، ومخرمة بن شرحبيل، فأرسل إليهما فاجتمعوا في منزل الحصين، فقال لهما الحصين: اسمعا ما أهدى إليّ شاعركم، وقاله لكم في أخيكم، ـ يعني نفسه ـ وأنشدهم، فقال يزيد بن أسد: فإني قد جئتكم والله بأعظم من هذا، ورد عليه بالشعر[2].

وكان خالد بن يزيد بن معاوية قد تزوج بأعرابية فعندما أغاظته في يوم من الأيام أعرض عنها فقالت من الشعر:

أخالدُ مهلاً لا يُعيّرُ بالفقر ... فكم من فتى نذل الخليقة ذي وفر[3]

وقال يحيى بن الحكم أخو مروان بن الحكم، والي حمص زمن عبد الملك:

---

١ ـ مهنا (عبد): معجم النساء الشاعرات في الجاهلية والإسلام، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م، ص٦٣، ١٩٣.

٢ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٥، ص١٨٣. الأصفهاني، الأغاني، مج١٨، ص٤٣٨.

٣ ـ مهنا، معجم النساء، ص١٠٥.

لهامّ بجنب الطّفّ أدنى قرابة ... من ابن زياد العبد ذي الحسب الوغل

سميّة أمسى نسلها عدد الحصى ... وبنت رسول الله ليس لها نسل

وهو بذلك ينكر عمل معاوية بن أبي سفيان في استلحاق زياد بن أبيه[1].

وعندما قدّم هشام بن عبد الملك ابنه سعيداً على حمص فرمى بالنساء فكتب أبو الجعد الطائي إلى هشام مع خصي وأعطاه فرساً على أن يبلغ الكتاب وفيه:

أبلغ لديك أمير المؤمنين فقد ... أمددتنا بأمير ليس عنينا

طوراً يخالف عمراً في حليلته ... وعند راحة يبغي الأجر والدينا

فعزله وقال: "يا بن الخبيثة تزني وأنت ابن أمير المؤمنين، أعجزت أن تفجر فجور قريش قبل هذا، وأخذ ما لي، هذا لا يلي لي عملاً أبداً"[2].

٣- الرثاء

الرثاء هو ما قيل من الشعر الذي يعبر عن فقدان شخص عزيز، وعن محاسنه وآثاره في الناس، فقد قال عبد الرحمن بن خالد بن الوليد يرثي نفسه:

خليلي إن حانت بحمص منيتي ... فلا تدفناني وارفعاني إلى نجد[3]

وقال الأخطل يرثي يزيد ويصف قبره بحوارين إحدى قرى حمص:

لَعَمري لقد دلّى إلى القبرِ خَالدٌ ... جنازَةَ لا كابي الزِنادِ ولا غُمْرِ

مُقيم بحوّارين ليس ببارحٍ ... سَقتْهُ الغوادي من ثويّ ومن قبرِ

يَضجُّ الموالي أن رَأوْا أم خالدٍ ... مُشَنّعةً بالربط والسَرق الحُمرِ

إذا حلّ سربٌ من نساء يعدنها ... تعرّين إلا من جلابيبَ أو خمر

وقيل:

---

١ - ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٤، ص١٢٣.

٢ - المقريزي، النزاع والتخاصم، ص٥-٦.

٣ - الحموي، معجم البلدان، مج٢، ص٣٠٣.

أبـــني أميـــة إن آخـــر مُلكِكُـــم جَـــسَدٌ بحُـــوّارين ثـــمَّ مقُيـــمُ

طَرقَـــت منيّتـــه وعنـــد وســـادةٍ كـــوبٌ وزقٌ راعـــفٌ مـــرثومُ

وقيل:

يـــا أيهُـــا الميـــت بحوّارينـــا أصبحت خير الناس أجمعينا

ويروى:

يـــا أيهـــا القـــبر بحوارينـــا ضَـمَمتَ خيرَ الناسِ أجمعينا[1]

وقالت حميدة بنت النعمان بن بشير الأنصاري ترثي والدها حين قتل:

يـــا ليـــت مزنـــة وابنهـــا كـــانوا لقتلـــك وافيـــه

وبـــني أميـــة كلهـــم لم يبـــق مـــنهم باقيـــه

جـــاء البريـــد بقتلـــه بـــالكلاب العاويـــة

يـــستفتحون برأســـه دارت علـــيهم نابيـــه

فلأبكـــين مـــرة ولأبكـــين علانيـــة

ولأبكينـــك مـــا حييـــت مـــع الـــسباع العاويـــة[2]

وقيل في رثاء عبد الله بن الزبير ودور جند حمص في قتاله:

لقـــد أردت كتائـــب أهـــل حمـــص لعبـــد الله طَرْفـــاً غير وعـــلِ[3]

وقال الشاعر عمر بن أبي ربيعة القرشي في قتل مصعب عمرة بنت النعمان بن البشير:

إنَّ مـــن أعجَـــبَ العجائـــبِ عنـــدي قَتـــلَ بيـــضاءَ حُـــرَّةٍ عُطْبُـــولِ

---

١ ـ البلاذري، أنساب ، ق٤،ج١، ص٣٥٥.

٢ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٢، ص١١٥.

٣ ـ الدينوري، الأخبار الطوال، ص٣١٤. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٢٨، ص٢٥٤.

قُتِلَت هكذا على غيرِ جُرمٍ إنَّ لله دَرَّها من قتيلِ

كُتِبَ القتلُ والقتالُ علينا وعلى المحصناتِ جَرُّ الذيولِ[1]

قال المدائني: كان أبو بكر بن حنظلة العنزي منقطعاً إلى خالد بن يزيد فجفاه فقال:

بدا لي ما لم أخش منك ورابني صُدودٌ وطرفٌ مِنْكَ دونيَ خاشعُ

وما ذاك من شيءٍ سوى أنَّ ألسَناً عَلَيَّ فَرَت ذنباً وهُنَّ سوابعُ

أَبا هاشمٍ لا ضارعٌ إن جفوتني ولا مُستكين للّذي أَنْتَ صانعُ

ولكِنَّ إعراضاً جميلاً وعِفَّةً وبَيّناً سليماً عنك والبينُ فاجعُ[2]

وفي رثاء ذؤاله بن الإصبغ وصلبه على باب حمص في نهاية الدولة الأموية قيل من الشعر:

ألا هل أتى حسان كلب بأننا تركنا بحمص من ذُؤَالة مرقبا

فبدل بعد السير فيها إقامة وبعد ركوب الخيل جذعاً مشذبا[3]

٤- الفخر:

الفخر من فنون الشعر الغنائي يتغنى فيه الشاعر بنفسه، أو بقومه انطلاقاً من حب الذات كنزعة إنسانية طبيعية. وكان الفخر وسيلة لرسم صورة عن النفس ليخافها الأعداء فتجعلهم يترددون طويلاً قبل التعرض للشاعر أو قبيلته، وقد ساعد على شعر الفخر أن اغلب سكان حمص كانوا وافدين من الصحراء التي بحكم فقرها بالماء والمراعي كانت تفرض مُثلاً خاصة بها كالكرم وحُسن الضيافة والإغاثة، وحسن

---

١ ـ اليعقوبي، تاريخ، مج٢، ص٢٦٤. الطبري، تاريخ، ج٦، ص١١٢. المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص١٠٠.

٢ ـ البلاذري، أنساب، ق٤ ج١، ص٣٦٤. المسعودي، مروج الذهب، ج٣، ص٥٩.

٣ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٧، ص٣٢٦.

الجوار، ولقد خفت حدة الشعر عموماً في صدر الإسلام لانشغال المسلمين بنشر الإسلام والفتوحات وبالخطب الحماسية، فتخلى الشعراء عن الفخر إلى سابق عهده في دولة تقوم على النزاع بين الأحزاب المتعددة، وتضج بالمعارضة السياسية[1].

أما أهم المناظرات المتعلقة بحمص وولاتها وقبائلها؛ ما قاله سالم بن وابصة عندما فاخر معاوية بن مروان بن الحكم، وكان مائقاً لخالد بن يزيد:

إذا افتخرت يوماً أميَّة أطرقت قُريشٌ وقالوا مَعدنُ الفضلِ والكرمْ

فإن قيلَ هانوا خيركُم أطبُقوا معا على أنّ خيرَ الناس كُلّهمُ الحكَمْ

ألستم بني مروان غيثَ بلادِنا إذا السنةُ الشهباءُ سَدَّت على الكَظَمْ

وقال خالد بن يزيد:

دَعوا الحُكم ليس الحُكمُ فيكم بني آستِها ولكنَّهُ في الغرِّ من آلِ غالبِ

بني مُرَّة الأثرون كانت إليهمُ تُساقُ حُكوماتُ الكِرام المَناجبِ[2]

وقالت ميسون بنت بحدل تزفن ابنها يزيد بن معاوية:

إن يزيد خير شبان العرب أحلمهم عند الرضى وفي الغضب

يبدر بالبذل وإن سيل وهب تفديه نفسي ثم أمي وأب

وأسرتي كلهم من العطب[3]

ومن أشعار النعمان بن بشير الأنصاري في الفخر:

وإني لأعطي المال من ليس سائلاً وأدرك للمولى المعاند بالظُلمِ

---

١ ـ محمد (سراج الدين)؛ موسوعة المبدعون الفخر في الشعر العربي، دار الرتب الجامعية، بيروت، لبنان، ١٩٩٨، مج١، ص٥ـ ١٩.

٢ ـ البلاذري، أنساب، ق٤، ج١،ص٣٦٥.

٣ ـ ابن حبيب، المنمق، ص٣٤٩. ديوان معاوية؛ جمعه وحققه وشرحه فاروق سليم بن أحمد، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٦م، ص١٣٥.

فلا تعدد المولى شريكك في الغنى ولكنما المولى شريكك في القدم

إذا متَّ ذو القربى إليك برحمة وغشّك واستغنى فليس بذي رُحم

ولكن ذا القربى الذي يستخفّه أذاك ومن يرمي العدو الذي ترمي[1]

وعندما بويع الوليد بن يزيد بن عبد الملك، قدّم نزار وجفا أهل اليمن، وعمد إلى خالد القسري وكان على العراق وما يليه من الأهواز وفارس والجبال، وأخوه أسد على خراسان فدفعه إلى يوسف بن عمر الثقفي عامله على العراق فحمله إلى الكوفة وعذبه حتى قتله، وقال الوليد عند ذلك يوبخ اليمن ويفتخر بنزار:

ألم تهتج فتذكر الوصالا وحبلاً كان متصلاً فزالا

وقال:

شددنا ملكنا ببني نزار وقومنا بهم من كان مالا

وهذا خالد فينا أسيراً ألا منعوه إن كانوا رجالا

عميدهم وسيدهم قديماً جعلنا المخزيات له ظلالا

وتتابعت من الوليد أعمال أنكرها الناس عليه، فدب يزيد بن الوليد في الدعاء لخلعه فأجابته اليمن بأسرها، ووثبوا على عامل الوليد بدمشق فأجابوه وبايعوا يزيد، ثم ساروا إلى الوليد وهو في البخراء بين حمص ودمشق فقتلوه، وأخذوا ابنيه ولي العهد الحكم، وعثمان فقتلا بعد ذلك بدمشق مع يوسف بن عمر الثقفي، وفي ذلك قال الأصبغ مفتخراً:

من مبلغ قيساً وخندف كلها وسادتها من عبد شمس وهاشم

قتلنا أمير المؤمنين بخالد وبعنا ولي عهده بالدراهم

وقال خلف بن خليفة البجلي:

---

١ ـ المقدسي، الاستبصار، ص١٢٢.

تركنا أمير المؤمنين بخالد ... مكباً على خيشومه غيرَ ساجد

وإن سافر القسري سفرة هالك ... فإن أبا العباس ليس بعائد

أقرئ معد بالهوان فإننا ... قتلنا أمير المؤمنين بخالد

قال وقد بلغنا ولد لأحدهما وهو الحكم، وكان أكبرهما والآخر قد احتلم قبل ذلك بيسير، فقال: قال الحكم:

ألا من بلغ مروان عني ... وعقبى العمر طال بذي حنينا

بأني قد ظلمت وصار قومي ... على قتل الوليد مشايعينا

أيذهب كلبهم بدمي ومالي ... فلا غثاً أصبت ولا سمينا

ومروان بأرض بني نزار ... كليث الغاب مفترش عرينا

ألا يحزنك قتل فتى قريش ... وشقهم عصا للمسلمينا

ألا واقر السلام على قريش ... وقيس بالجزيرة أجمعينا

وسار الناقص القدري فينا ... وألقى الحرب بين بني أبينا

فلو شهد الفوارس من سليم ... وكعب لم أكن لهم رهينا

ولو شهدت ليوث بني تميم ... لما بعنا تراث بني أبينا

اتنكث بيعتي من أجل أمي ... فقد بايعتم قبلي هجينا

فليت خؤولتي في غير كلب ... وكانت في ولادة آخرينا

فإن أهلك أنا وولي عهدي ... فمروان أمير المؤمنينا[1]

---

١ ـ وانه ابن أم ولد ويزيد بن الوليد الذي بايعوا ابن أم ولد، وكان بنو مروان يرون أن ذهاب ملكهم

وقد تفاخر بعض الشعراء بخمر حمص :

كـأنني شـاربٌ يـوم اسـتَبَدّ بهـم ... مـن قَرْقَفٍ ضُمِنَتها حِمْصُ أو جدر[1]

وفاخر ديك الجن بقبيلته كلب الحمصية فقال:

كَلبٌ قبيلي وكَلبٌ خير من وَلَدتْ ... حَوّاءُ من عَرَبٍ غُرٍّ ومن عَجَم

ويَوْمَ صفين من بعد الخريبةِ (الجمل) كَمْ ... دمٍ أطلَّ لنصرِ الدين إثْرَ دَمِ[2]

٥- المديح:

اصطبغ المديح في العصر الأموي بالصبغة الحزبية السياسية مع تحول العصبية القبلية إلى عصبية حزبية، فقد نشأت الأحزاب السياسية ولكل حزب شعراء انحازوا إليه، وقد شجع الخلفاء الأمويون الشعراء على المدح وأغدقوا عليهم الأموال حتى تهافت الشعراء على الخلفاء والولاة والقادة وبالغوا في صفات الممدوح[3].

ومدح كعب بن جُعيل فتح حمص في أيام معاوية بن أبي سفيان قائلاً:

ولو سئلتْ دمشقُ وبعلبكٌ ... وحمصُ من أباحَ لكم حماها

فسيفُ اللهِ أدخلها المنايا ... وهدَّم حصنها وَخَوى قُراها

وأنزلها معاويَ بنَ حربٍ ... وكانت أرضه أرضاً سواها

ملكهم على يد خليفة منهم ابن أم ولد. ابن العديم، بغية الطلب، ج٦، ص٢٨٨٩ـ٢٨٩٠. القضاعي، عيون المعارف، ص١٨٣. المقدسي، البدء والتاريخ، ج٦، ص٥٤. ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٥، ص٨١.

١ ـ أبو تمام، نقائض جرير والأخطل، عُني بطبعها لأول مرة عن نسخة الأستانة الوحيدة وعلق على حواشيها الأب أنطون صالحاني اليسوعي، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٢٢، ص١٤٩.

٢ ـ أبو محمد عبد السلام بن عبد السلام بن حبيب الكلبي الحمصي، (ت ٢٣٥هـ/٨٤٩م) : ديوان ديك الجن، حققه وأعد تكملته أحمد مطلوب، عبد الله الجبوري، دار الثقافة، بيروت، ١٣٨٣هـ، ١٩٦٤م، ص١٢٩ـ١٣٠.

٣ ـ محمد، موسوعة المبدعون، مج١، ص٢٥.

فأكرمه معاوية على ذلك[1].

وقال القعقاع بن عمرو في فتح حمص الأخير " الحصار الثاني":

يـدعون قَعقَاعـاً لكـلّ كريهـة ... فيجيـب قَعقَـاع دعـاءَ الهاتـفِ

سـرنا إلى حمـص نريـد عدوّهـا ... سـير المحـامي مـن وراء اللاهـف

حتـى إذا قلنـا: دنونـا منهـم ... ضَـرَبَ الإلـه وجـوههم بـصوارف

مازلـت أزلّهـم وأطـرد فيهـم ... وأسـيرُ بـينَ صَحَاصـح ونفانـف

حتـى اخـذنا جـوهر حمـص عنـوة ... بعد الطعان وبعد طول تسايف[2]

وقال زياد بن حنظلة في فتح حمص:

أقمنـا علـى حمـصٍ، وحمـص ذميمـة ... تـضم القنـا والمرهفـات الفواصـل

فلمـا خـشوا منـا تهافـت سورهـا ... لمـا ضـمها مـن حاديـات الـزلازل

أنـابوا جميعـاً فاسـتجابوا الدعـوة ... من السلم قد قضت جميع الأوائل

وقال أيضاً:

تركنـا بحمـص حائـل بـن قيـصر ... يمـج نجيعـاً مـن دم الخـوف أشـهلا

سـيموت لهـم يـوم الـزلازل سـائياً ... فغادرتـه يـوم اللـقاء مجـدّلا

وذلّـت جمـوع القـوم حتـى كأنهـم ... جـدار أزلتـه الـزلازل أميـلا

تركنـا بحمـص حزنـة قـد رضـيتها ... تـدور وترضـاها الـذي قـد تـأملا[3]

---

١ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٥٠، ص١٢٨.

٢ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٤٩، ص٣٥٥.

٣ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٩، ص١٤٣.

فقد كتب الخليفة يزيد بن معاوية إلى ابن الزبير أبياتاً من الشعر يمدح فيها القبائل الشامية ومنها الحمصية (كلب، السكون، لخم، جذام، حمير) قائلاً:

استعدِ رَبَّكَ في السمّاءِ فإنّني ... أدعُو إليكَ رجالَ عَكٍّ وأشعرِ

ورجالُ كلبٍ والسكونِ ولَخمها ... وجُذامَ تَقْدمُهُا كتائبُ حميرِ

كيف النجاءُ أبا خُبيبٍ مِنهُمُ ... فاحْتل لِنفسكَ قبلَ أتي العسكرِ[1]

كما أن النعمان بن بشير لما ولي حمص لمعاوية بن أبي سفيان وفد عليه أعشى همدان، طالباً المال، فخطب النعمان في أهل حمص الذين تبرعوا من عطائهم الخاص كل واحد دينارين، وكان عددهم في الديوان عشرون ألفاً، فجمعوا له أربعين ألف دينار فقال:

فلم أَر للحاجات عند انكماشها ... كنُعْمَان أعني ذا الندى ابن بشيرِ[2]

ومدح الأخطل خالد بن يزيد بن معاوية متجاوزاً ذكر الأطلال والأحبّة فقال:

رَأيتُ قُرَيْشَا، حينَ مَيّزَ بَيْنَهَا ... تَباحُثُ أضْغانٍ وَطَعْنُ أُمُورِ

عَلَتْهَا بحُورٌ مِنْ أُميّةَ تَرْتَقي ... ذُرى هَضْبةٍ، ما فَرْعُهَا بقَصيرِ

أخالِدُ، ما بَوّابُكُمْ بمُلَعَّنٍ ... ولا كَلْبُكُمْ للمُعْتفي بعَقورِ

أخالِدُ إيّاكُمْ يرى الضَّيْفُ أهلَهُ ... إذا هَرَّتِ الضِّيفانَ كُلُّ ضَجُورِ

يَرَوْنَ قِرَى سَهْلاً، ودارَا رَحيبَةً ... ومُنطلَقَا في وَجْهِ غَيْرِ بَسورِ[3]

وقد مدح أحد الشعراء والي حمص عبد الله بن عبد الملك قائلاً:

في كَفّه خَيْزَرَانٌ ريحُها عَبِقٌ ... من كفّ أزهرَ في عرنينه شممُ

---

١ ـ البلاذري، انساب الأشراف، ق٤، ج١، ص٣٢٣.

٢ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٦٢، ص١٢٣. الأصفهاني، الأغاني، ج٦، ص٣٢٥.

٣ ـ ديوام الأخطل، ص٦٣.

يغضي حياءٌ ويُغضى من مهابته ... فما يُكَلَّم إلاّ حين يبتسم

فأكرمه بخادم يعينه بناء على طلبه[1].

ومدح بشير بن عبد الله، والي حمص العباس بن الوليد بن عبد الملك فقال:

لقد علمت حقاً إذا هي حُمّلت ... لأحسابها يوماً لمكرمة فهرُ

بأنّك يا عباس غرة مالك ... إذا افتخرت يوماً وقام بها الفخر

فتّى يجعل المعروف من دون عرضه ... وينجز ما منّا كما يُنجز النذر

نمته إلى العليا قناةٌ بريّةٌ ... من العيب والآفات ليس بها فطر

تساوي الثريا أو تلم فروعها ... ويقصر عنها أن يساويها النسر

فأقسم لو كان الخلود لواحدٍ ... من الناس عن مجد لأخلدك الدهر

قضى مغرمي لما عرضت بحاجتي ... أغرّ بطاحي به يفخر النضر

وما جئته حتى بدا متن صعدتي ... فما دون ضاحيها فجًّا ولا قسر

فقد لها بعد الإله فمتنها ... له ناضر منيا وأفنانه خضر

فهذا أوان العسر أصبح مدبراً ... بأجمعه عنا وقيل لنا اليسر

وكنا بدار يقتل الفقر أهلها ... وأضحى يضاحي داره قُتل الفقر

فأصبح يدعى قاتل الفقر بالغنى ... ويدعى سداد الثغر إن ضُيع الثغر

وكان بشير قد أعسر عسرة شديد فقضى له العباس بن الوليد بألف دينار وأعطاه ألف درهم وجهزه إلى المدينة بعشرة جمال تحمل الكساء والطرائف[2].

---

١ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج٢٩، ص٣٤٧.

٢ ـ ابن عساكر، تاريخ دمشق، ج١٠، ص٢٩٤ـ٢٩٥.

ولم يقتصر الشعر على الرجال، فهذه ميسون بنت بحدل تمدح بادية حمص وتفضل العيش فيها فتقول:

لَبيـــتٌ تخفـــقُ الأرواحُ فيـــه ... أحـــبُّ إلـــيَّ مـــن قـــصرٍ منيـــفِ

وبكـــرٌ يتبـــعُ الأظعـــان سقبـــاً ... أحـــبُّ إلـــيَّ مـــن بغـــلٍ زفـــوفِ

وكلـــبٌ ينـــبحُ الطُّـــراق عنِّـــي ... أحـــبُّ إلـــيَّ مـــن هـــرٍّ ألـــوفِ

ولـــبسُ عبـــاءةٍ وتقـــرُّ عـــيني ... أحـــبُّ إلـــيَّ مـــن لـــبسِ الـــشُّفـــوفِ

وأكـــلُ كـــسيرةٍ في كـــسر بـــيتي ... أحـــبُّ إلـــي مـــن أكـــل الرَّغيـــفِ

وأصـــوات الريـــاح بكـــلِّ فـــجٍّ ... أحـــبُّ إلـــيَّ مـــن نقـــرِ الدُّفـــوفِ

وخـــرقٌ مـــن بـــني عمـــي كـــريمٍ ... أحـــبُّ إلـــيَّ مـــن علـــجٍ عليـــفِ

خُـــشونَة عيـــشتي في البـــدوِ أشـــهى ... إلى نفـــسي مـــن العـــيش الطَّريـــفِ

فمـــا ابغـــي ســـوى وطـــني بديـــلاً ... فحـــسبي ذاك مـــن وطـــن شـــريف[1]

٦- الغزل:

هذب الإسلام شعر الغزل، بحيث أصبح الشاعر يقتصر على ذكر محبوبة واحدة بأسلوب عفيف يتلاءم مع الفكر الإسلامي، وهو ما عرف بالغزل العذري، خلافاً للغزل الفاحش مع تعدد الحبيبات، والغزل التقليدي حيث اعتاد بعض الشعراء أن يبدأوا قصائدهم بمقدمة غزلية لكسب محبة السامعين[2]، تزوج خالد من نساء عديدات، منهن أم كلثوم بنت عبد الله بن جعفر بن أبي طالب، وفيها يقول حين زفت إليه:

---

١ ـ الأتليدي، نوادر الخلفاء، ص٥٤. البغدادي، خزانة الأدب، ج٨، ص٥٠٥ ـ ٥٠٦. أبو الفداء، المختصر، ج١، ص٢٦٨. مهنا، معجم النساء، ص٢٤٦.

٢ ـ محمد، موسوعة المبدعون، مج١، ص٢١.

فجاءت بها دُهمُ البغال وشُهبُها ... معتّقة في جوف قزّ مخدّر

مقابلة بين النبيّ محمّد ... وبين عليّ والحواريّ جعفر

منَافيّة جاءت بخالص ودّها ... لعبد منافيٍّ أغرَّ مشهّر[1]

وقال في رملة بنت الزبير:

تجول خلاخيلُ النساءِ ولا أرى ... لرملة خلخالاً يجولُ ولا قُلبا

أحبّ بني العوّام طرًّا بحُبِّها ... ومن أجلها أحْبَبْتُ أخوالها كلبا

فلا تكثروا فيها الملامَ فإنّني ... تخيّرتُها منهم زبيريّةً قلبا

وما ذكرت عندي لها من سميّة ... فتملك عيني من مشاربها غربا

فإن تُسلِمِي نُسلِم وإن تتنصَّرِي ... يعلّقْ رجالٌ بين أعينهم صُلبا[2]

---

١ ـ المقريزي، المقفى الكبير، ج٣، ص٧٧٨.

٢ ـ المقريزي، المقفى الكبير، ج٣، ص٧٧٩.

obeikandl.com